مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٣)

حسن السعيد

● يهود ونصارىٰ متنكّرون بثياب عربيّة.. وأسماء إسلامية!

مع تزايد قوّة أوروپا، في القرون المتأخّرة، وضعف العالم الإسلامي.. انطلقت في الغرب موجة من الاهتمام الظاهري بما هو عربي قادم من جزيرة العرب، وأخفىٰ ذلك الاهتمام الحقيقي الناتج عن اعتبارات سياسية واستراتيجية.

وبدا للحظة من الزمن أنّ همّ الأُوروپيين منصرف للتعرّف على الأماكن المقدّسة بالذات، ومحاولة رصد تحصيناتها، ومعرفة طبائع السكّان وتقاليدهم، والتعرّف على المراسيم الدينية كالحجّ، ودورها في حياتهم[1].

وفي هذا الاتجاه، انتهينا في الحلقتين السابقتين إلى ما خلاصته:

في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، كانت قد توفّرت لدى الغربيين المعلومات الأساسية عن شبه جزيرة العرب: عن المدينتين المقدّستين، واليمن والبدو.

كما أنّ من الواضح أنّ «دي فارتيما» وحده كان، حتى هذا التاريخ، هو الرائد،

أمّا الآخرون فلم يكونوا سوى روّاد مصادفة. ومنذ القرن الثامن عشر بدأ في تاريخ الريادة إلى شبه جزيرة العرب ما يمكن أن يسمّىٰ بالريادة الحقيقية، التي دشّنها شيخ الرحالة «نيبور» [١٧٣٣ ـ ١٨١٥م] في رحلته الاستكشافية المثيرة، التي بدأها وأربعة زملاء آخرين عام ١٧٦١م، بناءً على تكليف خاص من فردريك الخامس ملك الدنمارك، وقد لقيت هذه الحملة مصادفات عجيبة انتهت بمعظم شخوصها إلى الهلاك. وكان من ثمار هذه الرحلة ترك مذكّرات مهمّة، عن عموم بلاد الجزيرة العربية والعراق، ورسم خريطة كاملة لليمن(٢).

وما يعنينا من رحلة «نيبور» هو؛ أنّه أبحر مع رجاله الأربعة ومعهم خادمهم السويدي جنوباً في البحر الأحمر إلى جدّة، حيث استأجروا بيتاً، وانتظروا هبوب رياح مواتية؛ لاستئناف سفرهم إلى أماكن أبعد. وقد انتظروا حوالى ستّة أسابيع، قبل استئناف المسيرة في سفينة مفتوحة.. وفي هذه المرّة لم يرافقوا جموع الحجّاج، الذين رافقوهم عند مغادرة السويس، والذين كانوا قد وصلوا مكّة وأدّوا فريضة الحج ثم عادوا..(٣).

ولأسباب نجهلها، لم يتغلغل «نيبور» إلى الأماكن المقدّسة، في الوقت الذي ذهب بعيداً في مغامرته الجريئة، حينما جاب بقاعاً كانت عصيّة، حتّى ذلك الوقت وإلى وقت لاحق، على أمثاله. الأمر الذي أكسبه شهرة واسعة، وعدّه المؤرّخون علامة فارقة، في تاريخ رحلات الاستكشافات الغربية إلى الجزيرة العربية.

على أنّ ثمّة جهوداً متواضعة سبقته للتعرّف على المناطق الساحلية، وخاصّة في مطلع القرن السابع عشر. وقد كانت شركة الهند الشرقية معنيّة بجمع المعلومات عن موانئ البحر الأحمر وأهميتها، فكلّفت عدداً من رجالها بذلك. وكان من جملتهم «القس جوزيف أُوفينكتون» الذي كتب في وصف جدّة وأهميتها، فنشر الوصف في كتابه المسمىٰ «رحلة إلى صوراة» [A VoYage to Suratt].

وهو يقول: إنّ الميناء الرئيسي في البحر الأحمر يعود للسلطان.. وهو ميناء

مكّة. وليست الأراضي المحيطة بهذين البلدين ذات فائدة مطلقاً، كما أنّها غير قابلة للاصلاح والتحسين، بحيث إنّها قد أُصيبت بلعنة من الطبيعة، فحُرمت من نِعَم الله تعالى بندرة وجود الأشياء كلّها فيها، ما لم تستورد لها من الخارج.. وتزدهر جدّة بمواصلاتها الدائمة مع الهند وايران والحبشة، وأجزاء الجزيرة العربية الأُخرىٰ، فيأتي العرب إليها ببُنهم (قهوتهم) ليشتريه الأتراك ويحملوه إلى السويس، ويأتي إليها على الشاكلة نفسها الحجّاج في كلّ سنة من أنحاء العالم الإسلامي جميعه.

وفي عهد الشريف سعيد (١٧٠٠م) وصل إلى جدّة رجل انگليزي يُدعى «ويليام دانيال»، وآخر فرنسي يُدعى «شارل جاك بوسيه». فخلّفا وصفاً واضحاً عمّا شاهداه. فقد كان الأوّل شاهد عيان للخصام، الذي حصل بين الشريف الأكبر سعيد، والباشا الذي كان يمثّل السلطان في الحجاز.

أمّا الفرنسي فقد وصل إلى جدّة، في اليوم الخامس، من كانون الأوّل (ديسمبر) أي بعد الحادث المار ذكره بأيّام قليلة[٤].

وأيّاً كانت قيمة المشاهدات والانطباعات، التي تركها هؤلاء وغيرهم، فإنّ الرحالة الدانماركي «ينبور» قد ترك بصماته الواضحة في تاريخ الرحلات الغربية، طيلة عقود طويلة. لقد تزامنت شهرة ينبور وذيوع صيته في الدوائر المعنيّة بالشرق مع تنامي حركة التنوير الفلسفية في القرن الثامن عشر.

وقبل أن يؤذن هذا القرن بالرحيل، كان هناك حدثان خطيران في المشرق الإسلامي، أثارا الانتباه لدى البعض والمخاوف ـ إلى حدّ الذعر ـ عند البعض الآخر، وهما؛ غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨م، والذي كان إيذاناً ببدء مرحلة الاختراق الحضاري للمشرق الإسلامي، من قبل دوائر الغرب وطلائعه الاستعمارية.

الحدث الثاني تمثّل بتصاعد قوّة الوهابيين في قلب الجزيرة العربيّة، وتحرّك محمّد علي باشا لضرب القوّة الجديدة. وهنا وجد الغرب فرصته الذهبية لتكثيف

جهوده في المنطقة[٥].

وعلىٰ حين كانت أوروبا تهتزّ وترتعد وتسقط فريسة الحروب النابليونية، ظهر وكأن بلاد العرب أيضاً قد أصبحت تحت قبضة حركة استبدادية مطلقة.. وفي أثناء سنوات الغليان والفوضى هذه، مرّ رحّالتان جديدان، في هذه البلاد الصحراوية، وفي تلك المدن المقدّسة[٦]، وقد تظاهرا بالإسلام، منتحلين لهما اسمين مسلمين، في نطاق إخفاء مهمّاتهما السريّة.

● اليهودي.. الجاسوس

وبعد ست وأربعين سنة من رحلة نيبور، وبالتحديد عام ١٨٠٧ يصل الحجاز رجل يهودي اسباني الأصل يُدعى «دومنيكو باديا أي ليبليج» لينتحل اسماً ونسباً عربيّاً «علي بك العبّاسي»، ويدّعي لنفسه أن شريف مكة (الشريف غالب) قد لقّبه «خادم بيت الله الحرام»، وأنّه استقبله بحفاوة، وأشركه معه في غسل الكعبة المشرّفة.

وقد تضاربت الآراء في حقيقة هذا الرجل، كما يقول «برينث» فقد يكون عميلاً للفرنسيين أو البرتغاليين أو ربّما الانكليز، وهناك من يذهب إلى أنّه كان جاسوساً لسلطان مصر «محمد علي باشا» الذي كان يجهّز لحملة ضد الوهابيين، فإن «علي بك العباسي» يكون قد وضع حدّاً للجهود، التي قامت على الرغبة الغامضة والطمع في المنال القريب المتوقّف على اكتشاف الحدود الساحلية. كما أنّه سيكون أوّل أوروبي احتك بالناس، من موقع لم يثر حساسيتهم، وكان لادعائه النسب العباسي، وتأكيده لشريف مكّة بأنّه كان واحداً من عائلتهم الوجه الذي دخل به قلوب الناس، فاستغل ذلك للتجسّس عليهم[٧].

فما هي، يا ترىٰ، حكاية «العبّاسي» هذا؟

وما هي حقيقة تظاهره بالإسلام؟

وماذا تكمن وراء ذلك من دوافع.. وأهداف؟

وحتى نصل إلى جليّة الموقف، لابدّ من تتبّع تحرّكات هذا اليهودي، لنمسك برأس الخيط.

ففي عام ١٨٠٦، وصل إلى الاسكندرية، وكان قد ترك موطنه متوجهاً إلى شمال أفريقيا قبل ثلاث سنوات(٨) أي أنّه بدأ رحلاته عام ١٨٠٣م، التي شملت المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وفلسطين وسوريا وتركيا، وفي العام ١٨٠٧ تمّت رحلاته، وقد دوّنها بعد عودته إلى أوروپا، واستقراره في فرنسا باللغة الفرنسية، في كتاب من جزأين(٩).

لا نعرف الشيء الكثير عن تفصيلات حياته. إذ يكتنفها قدر غير يسير من الغموض. وما معروف عنه أنّه كان عالماً ذكيّاً أجرى اتصالات مع كثير من علماء أوروپا. ولكنّه اختفى فجأةً، ولم يسأل أحد عن سبب اختفائه، وذلك لأنّ السلطات المختصّة كانت تعرف إلى أين ذهب، كما يقول «برينث». فقد أبحر إلى البحر الأحمر، ومن ثمّ إلى جدّة، وكان ينوي أن يشقّ طريقه إلى مكّة(١٠).

وفي مقدّمته للطبعة الجديدة لكتاب «رحلات علي بك» التي صدرت عام ١٩٩٣ كتب الاختصاصي البريطاني «روبين بدويل» قائلاً: «لم يقدّم رحالة في العالم العربي صورة غامضة كالتي قدّمها «علي بك»، كما أن تقريره يبدأ بطريقة مبتورة لا مثيل لها».

وبالفعل يستهل «علي بك» سرده بصلاة قصيرة بالعربيّة، يصرّح بعدها بأنّه قرّر القيام برحلة الحجّ إلى مكّة المكرّمة، من أجل مراقبة البلاد التي سيمرّ بها، لصالح البلد الذي سيستقرّ فيه في نهاية المطاف.. وكان هذا البلد ـ كما نعلم لاحقاً ـ فرنسا.

● مهمّة خاصة في المغرب

بعد هذه المقدّمة المختصرة، يصف وصوله إلى طنجة في حزيران (يونيو) ١٨٠٣م ويزعم أنّ اسمه «علي بك العباسي» وأنّه ينحدر من سلالة هارون الرشيد، ويقيم في مدينة حلب. لكن «بدويل» يقول: «إنّ قصّة هويته الكاملة ما تزال مدفونة في محفوظات مكتب استخبارات ما، أو أنّها فقدت إلى الأبد».

والواقع أنّ المعلومات عنه قليلة، ويتردّد أنّه كان جاسوساً، عمل أوّلاً لحساب الأسبان، ومن ثم لحساب نابليون. وهو من أصل أسباني، ولد في برشلونة عام ١٧٦٦م. درس اللغة العربية والعلوم (الفيزياء وعلم النبات والجيولوجيا) في جامعة فالنسيا. وفي ١٨٠١م قدّم خدماته كمستكشف في غرب أفريقيا إلى شخصية بارزة في السلطة الأسبانية، وفي العام ١٨٠٢ زار لندن حيث قدّم إلى «جمعية المساعدة لاكتشاف المناطق الداخلية في أفريقيا» مشروعاً للوصول إلى تبكتو عن طريق الجنوب، عبر جبال الأطلس. وبعد سنة فقط، وصل إلى المغرب بزي عربي كامل، وثراء واضح، وحاشية بارزة.

ويعتقد المؤرّخون الذين اهتموا بسيرة «علي بك» أنّ نفقات الرحلات كانت باهظة إلى حدّ لم يكن بإمكان أسبانيا وحدها أن تتحمّلها، ولذلك فمن المحتمل أنّه عمل أيضاً كجاسوس لحساب نابليون، الذي كان يطمح منذ حملته على مصر في العام ١٧٩٨م، إلى استغلال العالم الإسلامي لصالح فرنسا. وكان الامبراطور الفرنسي أمر باجراء أسبار سرّية على شواطئ شمال أفريقيا، وجهّز الخطط المختلفة، من أجل استعمار الأراضي الزراعية الغنية في المنطقة ذاتها.

ويقول «علي بيك»: إنّه، خلال إقامته في المغرب، أصبح صديقاً للسلطان مولاي سليمان، وأهداه عشرين بندقية، وبرميل بارود، ومظلّة جميلة. وفي المقابل، قدّم له السلطان رغيف خبز من فرنه الخاص، كدليل على الأُخوّة، والأهم من ذلك، حسب كلام الرحالة: «أهداني السلطان أراضي واسعة، سمحت

لي بأن أحافظ على المصاريف التي كـان يـتطلّبها مـركزي، فـضلاً عـن أمـوالي الخاصّة».

قضىٰ «علي بك» سنتين في المغرب، واستطاع أن يعطي تفاصيل دقيقة عـن البلد ومناطقه وسكّانه. غير أن العلماء المختصّين بشؤون المغرب حديثاً لم يجدوا أيّة إشارة إليه في المراجع المعاصرة له. ممّا يؤكّد أنّ هذا اليهودي كان ضالعاً في مـهمّة سرّية، وليس في مهمّة علميّة؛ لذا فإنّ المعلومات التي سجّلها والانـطباعات التي رصدها قد أخذت طريقها الى كواليس أجهزة الرصد الاستعمارية.

وما يعزّز هذا التحليل، هو أنّ «بدويل» يقول في المقدّمة: «لم تكن هناك أيّة فائدة بالنسبة إلى أسبانيا في متابعة تمويل رحلات "علي بك" بعد المـغرب، إلّا أنّ انتقاله تزامن مع اندلاع الحرب الفرنسية ـ الروسية، وبروز سياسة جديدة عـند نابليون تهدف إلى اكتساب أصدقاء في تركيا وايران ومصر.. وحتى في مسقط».

أمضى «علي بك» أشهراً قليلة في طرابلس، انـتقل بـعدها إلى قـبرص، ثمّ توجه إلى مصر، حيث التقى محمد علي باشا. وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٠٦م بدأ رحلته إلى مكّة المكرّمة التي وصل إليها بعد شهر، في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٠٧م. فاستقبله أمير المدينة بحفاوة وعيّن موظفاً كبيراً لمرافقته(١١).

● التظاهر بأنّه من أشراف المسلمين!

إذن، هذا اليهودي الذي تزيّا بزي المسلمين، وسمّىٰ نفسه «علي بك العباسي» كان مكلّفاً بمهام خاصّة من قبل الحكومة الفرنسية(١٢) وعـندما وصـل إلى بـلاد العرب لم يكن هذا الذي وصل إلى الشواطئ العربية رحالة أو عالماً أسبانياً، بل كان رجلاً مسلماً، ومن أشراف المسلمين..!!، إذ اختار لنفسه اسماً مـرموقاً وأجـداداً ممتازين، كما يقول «يرينث».

ولكي يدلّل على مصداقيته وليبعد الشبهات عنه، اعتاد الخدم من حـاشيته

وضع سجادته المخصصة لصلاته خلف سجادة الإمام مباشرة. وقد وصل علي بك إلى مكّة وهناك استقبله شريف مكة. وإذا كان هناك مجال للتساؤل حول عبقريته فقد زالت هذه الشكوك الآن. إذ إنّ «علي بك» كان يجيد اللغة الفرنسية والأسبانية والايطالية، ولكنّه كان حريصاً على تكلّم اللغة العربية بطلاقة وسهولة أزالت كلّ الشكوك حول أصله ومحتده. ولو كان هناك أدنى شك في هذه القضية، لكان المسوؤل عن بئر زمزم، والذي كان يقدّم ذلك الماء المقدّس للأشراف والنبلاء ويدس السم ـ على حدّ زعم برينث ـ لمن تحوم حولهم الشكوك، لكان هذا قد نفّذ فعلته بالنسبة لعلي بك.

دخل «علي بك» مكّة متحديّاً العادات والتقاليد، فقد كان راكباً بعيره، وقد سُمح له بذلك لإصابته أثناء الرحلة. وعند دخوله مكّة اتّجه إلى الكعبة مع بقيّة الحجّاج مباشرة، وكان اثنان من خدمه يدعمانه ويساعدانه على السير والطواف.

ويقول «علي بك» في مذكّراته: «إنّ الخدم الذين أحاطوا بي داخل الرواق المعمد الممتد على مدى البصر، وساحة (المعبد) الهائلة، وبيت الله المغطّىٰ من قمّته لأسفله بالقماش الأسود، والمحاط بحلقة من المصابيح، وتأخّر الوقت وسكون الليل، ومرشدنا الذي كان يتفوّه بكلمات كما لو أنّه يتلو شيئاً قد أُوحي إليه، كلّ هذه الأشياء قد شكّلت صورة مؤثّرة لا يمكن أن تنمحي من ذاكرتي أبداً».

وعلى الرغم من هذا التأثّر، إلّا أنّ «علي بك» كان يتوخّى الدقّة في أوصافه طيلة مدّة إقامته. فهو يصف بالتفصيل الأروقة المعمدة والقباب والمآذن في المسجد العظيم، ويخبرنا عن الأماكن المبلّطة والأماكن ذات الأرض الرملية. ويميّز الأمكنة التي تخصّ أتباع كلّ مذهب من المذاهب، فالمالكية هنا، والحنفية هناك، والشافعية من جهة، والحنابلة وهم مؤسسو المذهب الوهابي من جهة أُخرى. وقد سُمح لعلي بك بصفته من الزوّار ذوي الأهمّية بالاشتراك في غسل الكعبة، وهكذا فإنّ علي بك هو أوّل زائر عُرف عنه أنّه قام بمثل هذا العمل[١٣].

وبذا، يكون علي بك ثاني رحالة أجنبي يقدّم للغرب وصفاً عن مكّة المكرّمة، بعد «جوزيف بيتز» (الذي تحدّثنا عنه بشيء من التفصيل في العدد الماضي) في كتابه الذي وضعه في أواخر القرن السابع عشر، تحت عنوان «وصف أمين لديانة وأخلاق المحمديين». إلّا أنّ سرد علي بك أكثر دقةً وشمولاً، فهو يصف المدينة والحرم الشريف بصورة شاملة، ويقدّم التخطيطات والرسومات، ويتناول أوضاع الأهالي، والظروف السياسية والتجارية، والأسواق والبضائع، والمباني، والفنون، والعلوم، والحيوانات والزراعة.. والأهم من كلّ ذلك أنّه كان أوّل من حدّد موقع المدينة الحقيقي (١٤).

● شريف مكّة.. كما يراه علي بك

اجتمع علي بك بالشريف غالب. فقال: إنّه في العقد الرابع من العمر، ووصفه بأنّه كان أنانياً غير متعلّم(١٥) وأنّه على جهله ذو حصافة ودهاء. رآه لأول مرّة في مجلسه وهو يدخن النارجيلة التي كانت محجوبة خوفاً من الوهابيين. فلم ير السائح الأوروبي غير النربيج الذي كان يتصل من خرق في الحائط بالنارجيلة وراءه في الغرفة المجاورة للمجلس(١٦).

ويمضي «علي بك» في نقل انطباعاته عن شريف مكة، زاعماً أنّ الانگليز كانوا يعتبرونه أحسن صديق لهم، ولذلك كانوا يشجعون التجارة مع الهند بواسطته، كما يقول: إنّ الشريف كان يبعث بسفنه لتتاجر مع مخا ومسقط وصوراة، وأنّه كان يدّعي بعائدية مصوع وجزيرة سواكن له، مع أنّهما كانا يخضعان للسلطان بصورة اسمية(١٧).

وعن بعض مهمّات الشريف غالب يذكر «علي بك» قائلاً: «دخل شريف مكة وسلطانها محمولاً على أكتاف بعض أتباعه، ورؤوس البعض الآخر تحيط به شيوخ القبائل. وقد حاول بعض الزوّار اللحاق بهم، ولكن الحرّاس ـ وهم من

أصل أفريقي ـ منعوهم، وذلك بضرب كلّ من يقترب بعصيّهم. وقد بقيت بعيداً عن الباب، وذلك لتجنّب الاختلاط بالجمهور، وعندها رأيت السيّد المسؤول عن بئر زمزم يشير إليّ بيده أن أتقدّم، وذلك بأمر من شريف مكّة، ولكن كيف أستطيع أن أشق طريقي، خلال الألوف من الناس أمامي؟»

بدأ الحرّاس بغسل الكعبة بالماء المقدّس من ماء زمزم، وقد تلقّف الجمهور تلك المياه، وكان البعيدون من الحضور ينادون طالبين حصّتهم من الماء، وقد قُدّمت آنية الشرب، ونال علي بك وعاءً شرب بعض ما فيه، وصبّ الباقي على نفسه، وذلك لأنّ الماء يحمل بركة الله فيه، ومع ذلك فقد كان ممزوجاً بماء الورد ذي الرائحة الزكية. وبعد ذلك حاول علي بك الوصول إلى باب الكعبة، وقد حمله عدّة أشخاص من فوق رؤوسهم، وأخيراً وصل إلى الباب حيث ساعده الحرس الافريقيون على الدخول. وفي داخل الكعبة سلّموه حزمات من (الفراشي) وبدأ يشطف أرض الكعبة، كما كان الشريف يشطف أيضاً وبحماس عظيم، مع أنّ أرض الكعبة كانت نظيفة ولامعة كلوح من الجليد. «وعندما انتهت هذه الاحتفالات أعلن الشريف أنّه قد أنعم عليّ بلقب خادم بيت الله الحرام، وعندها تلقيت تهاني ومباركات جميع المشتركين»(١٨).

● وصف مناسك الحجّ

ويأتي بعد ذلك على إيراد تفاصيل أُخرى عن مناسك الحج؛ ليطلع عليها قرّاؤه في أوروبا، فذكر كيف صعد إلى قمّة جبل عرفات، وهو المكان الذي يُقال: إنّ آدم قد قابل به حواء بعد انفصال طويل. ثم يذكر أنّه كان هنالك على قمّة جبل عرفات مكان مقدّس، عمل الوهابيون على هدمه. ثمّ يذكر لقرّائه عن رمي الجمرات أي الحجارة في منىٰ. وقال: إنّ هذه الحجارة ترمز إلى بيت الشيطان، وهو بناء غريب الشكل يرمي عليه جموع لا تُحصى ولا تُعد من الحجّاج الحصىٰ

والحجارة، وهو يقول: ولمّا كان الشيطان ماكراً وحقوداً بحيث بنىٰ بيته في مكان ضيّق لا يزيد في اتساعه عن أربع وثلاثين قدماً، وأنّه فضلاً عن ذلك مملوء بالحجارة الضخمة، التي يجب على الإنسان تسلّقها، إذا كان عليه أن يصيب الهدف. فالحجّاج مدعوون لإتمام هذا المنسك أو هذه العملية رأساً بعد وصولهم إلى (منىٰ)، وهكذا تسود الفوضى النادرة المثال، ولكنّي أخيراً وبعد أن ساعدني خدمي وأصدقائي تدبّرت أمر إتمام هذا الواجب المقدّس، ولكن أصبت بجرحين في رجلي اليسرىٰ.

كانت ملاحظاته عمّا رأى دقيقة، ولكنّها جافّة، ولم تكن تخلو من إشارات خفيّة وتلميحات تهكمية فيها. فهو يلاحظ مثلاً أنّ الأرض خارج الكعبة كانت على مستوى أرض الكعبة الداخلي، ولكن لا يمكن الوصول إليها الآن إلّا باستعمال بعض الدرجات، وهو يقول: «الحقيقة أنّ الإنسان يجب أن يفترض أنّ الحجر الأسود كان موضوعاً في مكان آخر غير المكان الذي هو فيه الآن، وذلك لأنّه منخفض بمقدار قدمين عن مستوى البوابة. فالكفّار ربّما دار بخلدهم أنّ الحجر الأسود لم يكن موجوداً أو أنّه كان تحت الأرض..».

ثم يقول: «أمّا أنا فلا أعتقد بمثل هذه الأفكار حول ذلك العهد الإلهي الثمين المقدّس»(١٩) ثم يعطي مقاييس الحجر الأسود فيقول: «يعتقد ان الملاك جبريل قد جلب الحجر الأسود من الجنّة، وكان شفافاً وقد قدّمه لإبراهيم الخليل، ولمّا لمسته امرأة نجسة تحوّل إلى اللون الأسود» ثم يعود.. فيقول: «في الحقيقة أنّ هذا الحجر هو من البازلت البركاني، وهو محاط ببعض البلورات الصغيرة المدببة اللامعة، ويحتوي بعض سلكات الألمنيوم على أرضية سوداء، وهو أسود غامق يشبه المخمل الأسود والفحم باستثناء نتوء واحد يميل إلى الاحمرار»(٢٠).

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ علي بك أو (دومنيكو باديا) لم يُظهر لنا تفاعله الروحي مع مناسك الحج، وأنّى له ذلك وهو اليهودي المكلّف بمهمّة

خاصّة؟! لهذا اقتصر عمله على وصف المناسك وكل ما تقع عليه عيناه وصفاً دقيقاً.. ليس إلّا[٢١]. ولعل هذا الأمر كان في مقدّمة مهمّته السرّية التي نُدب إليها!

● مشاهدات عن الوهابيين

وإذا صرفنا النظر عن مهمّة علي بك السياسية، فإنّه أوّل أوروبي شاهد جموع الوهابيين في مكّة، وحجّ معهم واعتمر، إذ كان الأمير سعود وأبو نقطة يتقدّمان الحجّاج إلى عرفات، وهم خمسة وأربعون ألفاً، ومعهم علي بك[٢٢].

ومن طريف ما يذكره «علي بك العبّاسي» هذا، الذي أصبح كتابه مرجعاً مهمّاً للغربيين عن مكّة، وصفه لجماعة من البدو الوهابيين الذين جاءوا إلى الحجّ في مكّة سنة ١٨٠٧م بصفته شاهد عيان[٢٣]، وقد سنحت له الفرصة لرؤية الجيش الوهابي، وهو يدخل مكة في صباح أحد أيام شباط (فبراير) عام ١٨٠٧م، عندما رأى حشداً من الرجال يكادون يكونون عراة، وهم متنكّبون البنادق، والسيوف في أحزمتهم[٢٤].

يقول علي بك: «.. وسرعان ما دخل البلدة جمهور من الرجال العراة، الذين لم يكونوا يلبسون شيئاً إلّا الأسمال التي كانت تستر عوراتهم. وكان عدد قليل منهم يضعون بالإضافة إلى ذلك شيئاً فوق أكتافهم، كما كان قسم آخر منهم عراة بالكلية، لكن الجميع كانوا مسلّحين إمّا بالبنادق أو بالخناجر. وحالما وقعت أعين المكّيين على هذا السيل من العراة المسلّحين، هرعوا إلى البيوت كلّهم، واختفوا عن الأنظار. وكان البعض من هؤلاء يركبون الخيول، مع عريهم وتسلّحهم بالرماح، ويرتلون أدعيتهم وجملهم الدينية بصوت مرتفع كلّ بالطريقة التي يختارها، ومن دون خشوع أو انتظام. وقد تولّى أطفال مكّة، وهم الأدلّاء على الدوام، إرشادهم والطواف بهم؛ لأنّ الكبار قد تلاشوا عن الأنظار. ولذلك أخذوا يمرّون في داخل البيت الحرام، ويقبّلون الحجر الأسود، وكأنّهم مجموعة محتشدة من الزنابير[٢٥].

ويشير علي بك إلى أنّ الناس عندما رأوا هذا السيل من الرجال المسلّحين العراة هربوا وأخلوا الشوارع لهم. وهكذا ملأ هؤلاء الشارع تماماً. أما أنا ـ يقول علي بك ـ فقد بقيت في مكاني، ثم تسلّقت كومة من القمامة حتى أستطيع الرؤية بشكل أفضل، راقبت مرور جيش مؤلف من خمسة أو ستّة آلاف رجل، وكان أمامهم ثلاثة أو أربعة فرسان يركبون الخيول والجمال وفي أيديهم حراب كالسابقين، ولكنّهم لم يحملوا أعلاماً أو طبولاً أو أيّة إشارة تشير إلى النصر العسكري، وفي أثناء سيرهم أطلق بعضهم أصواتاً تدل على الحماس الديني، وآخرون كانوا يتلون بعض الصلوات بشكل مرتفع كلّ حسب طريقته»[٢٦].

أما الشريف غالب فقد كان، خلال ذلك، يشاهد الوهابيين من قصره القائم فوق السفح، بعد أن أوعز إلى جنده من العبيد والأتراك بأن لا يغادروا مقرّاتهم، بينما كان هذا المد القادم من البادية يكتسح مكة، وينحسر عنها دون وقوع حادث يُذكر[٢٧].

وقد أدرك «علي بك» فيما بعد أنّ ذلك الحماس المتوقّد، الذي ظهر لدى الوهابيين، كان بسبب شعورهم بقوّتهم الساحقة. فهو يقول: إنّه لدى نزوله من جبل عرفات استطاع رؤية جيشهم جميعه وهو يقدّر بـ(٤٥) ألف مقاتل، جميعهم تقريباً يركبون الجمال، ومعهم حوالى ألف جمل لحمل الماء والخيام وخشب الوقود والتبن والعلف لجمال رُؤسائهم. وكان في مؤخرتهم شرذمة من الجنود يحملون أعلاماً ذات ألوان مختلفة مرفوعة على رماحهم. وهو يستنتج بحق أنّه بعد النظرة الأُولى، ورؤية هذا الحشد من الرجال المسلّحين العراة، الذين ليس لديهم أيّة فكرة عن الحضارة أو المدنية، ويتكلّمون لغة بربرية، هذه النظرة تسبّب الفزع والحذر، ومع ذلك فقد وجد فيهم بعض صفات الفضيلة، فهم لا يسرقون ولا ينهبون بالقوّة أو الحيلة إلّا إذا كانوا على يقين من أنّ ما يستولون عليه يخصّ الأعداء أو الكفّار. وكانوا يدفعون ثمن كلّ ما يشترونه أو أجرة أيّة خدمة تُقدّم لهم

من أمواهم الخاصّة، وهم يتبعون قوادهم ويطيعونهم طاعة عمياء، ويتحمّلون جميع أصناف الشقاء والمشقّة، ويتّبعون شيوخهم إلى أقصى المعمورة[٢٨].

ورغم هذا، فإنّ علي بك لا ينسى إبداء اندهاشه؛ لأنّ أهالي مكة وبقيّة الحجّاج لم يوافقوه على بعض آرائه الايجابية بالنسبة لهؤلاء القادمين الجدد، ولكنّه يسجّل أنّ الوهابيين قد دمّروا وهدّموا جميع المساجد التي خُصصت لذكرى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته. وقد هدّم سعود قبور الأولياء والصالحين من الصحابة وأبطال الإسلام الذين كان الناس يحترمونهم، وهدّم قصر السلطان الشريف أيضاً، ولم يُبقِ من تلك الأبنية إلّا الخرائب والأطلال[٢٩].

أمّا في المدينة المنوّرة فقد علم علي بك أنّ جميع الزخارف، التي أحاطت بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أتلفت، خلال نوبات من الحماس المتزمّت، حتى لم يبق شيء من ألوانها الزاهية الفخمة[٣٠].

أمّا في الشؤون الدينية فقد ألغيت وحُرّمت التقاليد القديمة، التي كان الحجّاج يتقيّدون بها جيلاً بعد جيل بإخلاص وتفانٍ، ومُنعت زيارة القبور. وفي جدّة ظهرت قوّة جديدة من الشرطة، وهم مسؤولون عن تذكير الناس بالصلوات الخمس وإجبارهم على أدائها، وكانوا عراة الأجسام، وفي يد كلّ منهم عصاً غليظة، وقد أمروا أن يصرخوا ويوبخوا الناس، ويسحبوهم قسراً من أكتافهم، حتّىٰ يشتركوا في الصلوات العامة خمس مرّات في اليوم، وقد تولّى رجال مسلّحون حراسة أماكن قبور الأولياء والصالحين، ومنع الناس من الدخول إليها[٣١].

● الجنرال باديا.. في خدمة نابليون!

حرص هذا اليهودي الداهية على التظاهر بأنّه الأمير المكرّم، والعالم المحترم، والحاج الورع الموقّر.. وكان في ظاهره عربيّاً قحاً، ومسلماً حقّاً، لا تعيقه كلمة يقولها، ولا تخونه فعلة أو إشارة، فما شك أحد في دينه أو في نسبه!

والعبّاسي هذا كان عالماً يحمل في حقائبه أدوات للرصد والمساحة، فاستخدمها في مكة وجوارها، دون أن يعترضه أحد من الناس، بل كان يحترمه الجميع، وقد حاز ـ كما مرّ ـ فوق ذلك شرفاً لم يحرزه سواه من المستشرقين، ولا يحوزه إلّا الأفراد القلائل من المسلمين، ألا وهو شرف كناسة الكعبة. ولكنّه على ما يظهر لم يفلح حتّى النهاية في تنكّره[٣٢].

إذ غادر علي بك مكّة المكرّمة في الثاني من آذار (مارس) ١٨٠٧م إلى جدّة، وعندما قصد إلى المدينة المنوّرة زائراً صدّه عنها الوهابيون[٣٣] وأُلقي عليه القبض عند محاولته الدخول إلى المدينة، وأوقف وأُتلفت بعض مقتنياته ومجموعاته، وبعدها أُجبر على الرجوع من حيث أتىٰ. وهكذا عندما شعر علي بك بهذا الخذلان بدأ في الاستعداد للرحيل إلى أوروپا[٣٤].

فتوجّه إلى ينبع ثم عاد إلى القاهرة، لكنّه لم يبق هناك فترة طويلة، بل قرّر العودة إلى أوروپا مروراً بفلسطين وسوريا وتركيا. ولأنّه حمل لقب الحج، تمكّن علي بك من زيارة المسجد الأقصىٰ، الذي لم يكن دخله غربي واحد، منذ الحروب الصليبية. وهنا أيضاً أعطى وصفاً دقيقاً وخرائط تفصيلية. وبعد القدس زار دمشق ثم اسطنبول، ووصل إلى رومانيا، حيث ينهي سرده العام ١٨٠٧، بالطريقة المبتورة ذاتها التي بدأ بها.

عند عودته إلى فرنسا، استقبله «نابليون» مرّات عدّة، ثم دخل في خدمة أخيه «جوزيف بونابرت» الذي كان وقتها ملك أسبانيا، وبعد فترة انتقل للعيش في پاريس، حيث عُرف باسم «الجنرال باديا» وفي تلك المرحلة وضع كتابه الذي أهداه إلى الملك لويس الثامن عشر.

في العام ١٨١٨ م، قرّر الرجوع إلى الشرق الأوسط، على أمل الوصول إلى تمبكتو برفقة قوافل الحجاج الأفارقة العائدة من مكّة المكرّمة[٣٥] وعلى ما يبدو كان تحرّكه الأخير مرصوداً من قبل عيون بريطانيا المبثوثين في المنطقة، على خلفيّة

التنافس الشديد بين الدولتين الاستعماريتين، للاستحواذ على مناطق النفوذ في الشرق الإسلامي. وفي أثناء عودته إلى المنطقة، غادر علي بك دمشق عام ١٨١٨م، متّجهاً لزيارة مكة للمرّة الثانية. وفي هذه الرحلة عاش كعربي بين أهله العرب وكحاج بين الحجّاج. ولكنّه توفي، بعد قطعه حوالى مائة ميل في طريقه إلى مكّة[٣٦] وذلك في آب (اغسطس) من تلك السنة. وتقول التقارير البريطانية: إنّ وفاته كانت بسبب مرض «الديزنتاريا». لكن التقارير الفرنسية تؤكّد بأنّه قتل مسموماً من قبل البريطانيين[٣٧].

ولأن الغموض يكتنف موته، فقد دار جدل كبير حول هذا الأمر بين الانگليز والفرنسيين منذ القرن التاسع عشر[٣٨]، فهل كان سبب موته إصابته بمرض الزحار (الديزنتاريا) حسب الرواية البريطانية؟ أم هل حدث أن لاحظ أحد الحجّاج الذين يلمّحون بعدّة لغات أنّ هذا الرجل متنكّر يُخفي حقيقته؟ أم أنّ علي بك قد مات مسموماً على يد أحد رجال المخابرات البريطانية، وذلك حسب الإشاعة التي انتشرت بعد موته، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا حدث هذا الاغتيال، بعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات؟

● الرجل الغامض

وعلى كلّ حال، فها قد سقط علي بك هناك، ولم ينفعه علمه ولا قوّة شخصيته التهكّمية.

وقيل: انّهم وجدوا صليباً بين ثيابه. أمّا كتابه الذي نُشر، قبل أربع سنوات من وفاته، والآراء المتناقضة التي تناقلها الناس حول شخصه وأخلاقه ونواياه ومعتقداته، فقد ظلّت حيّة بعده تحكي لنا كلّ شيء عن تلك الشخصية الغامضة[٣٩].

ومع ذلك، فإنّ علي بك يبقى سرّاً من الأسرار، على حدّ تعبير الباحث البريطاني «بيتر برينث» الذي راح يتساءل: ماذا كان يفعل في بلاد العرب، عندما

كان الوهابيون يقلبون الجزيرة العربية رأساً على عقب، وعندما كان نابليون يعسكر قرب الاهرامات؟ وهل كان قصده من البقاء جمع المعلومات بالنسبة للحركة الإسلامية الجديدة، حتىٰ يساعد نابليون في تقرير خططه للمستقبل بالنسبة للشرق الأوسط؟ أم هل كانت مهمّته مراقبة شواطئ البحر الأحمر لمصلحة السفن الفرنسية، التي كانت باريس تأمل في إرسالها؛ لتخوض مياه ذلك البحر في المستقبل القريب؟ وهل يعلم أحد حق اليقين عمّا إذا كان هذا الرجل مسلماً حقيقياً أم مسيحياً حقيقيّاً؟(٤٠)

وعن التساؤل الأخير، فإنّ من المؤكّد أنّ الرجل ليس مسلماً قط، أمّا مسيحيته فهي موضع تساؤل، خلافاً لما هو ثابت عن ديانته اليهودية، ولعلّه كان ماسونياً. وما يدعونا إلى هذا هو ما كان يبديه من شعور بالحماس العام بالنسبة لجميع الأديان، وهذه النقطة بالذات إحدى أبرز مرتكزات الادعاءات الماسونية، التي كانت مزدهرة جداً في فرنسا، ومنذ انتصار الثورة الفرنسية، وخاصّة في عهد نابليون بونابرت، الذي كان أحد صنائع الماسونية وضحاياها في آن معاً!

وعلي بك هذا.. كان رسول بونابرت إلى البلاد العربية، كما يقول أمين الريحاني(٤١)، وكان عمله التجسّس لصالح فرنسا من الأُمور المحسومة، ولقد اعترف هو نفسه، في مقدّمة كتابه، بأنّه يعمل لصالح البلد الذي يستقرّ فيه في نهاية الأمر!

ومهما كانت الحقيقة بالنسبة لهذا الرجل الغامض، إلّا أنّه كان أوّل رجل غربي يلبس الثياب العربية ويتكلّم اللغة العربية، ويتّخذ لنفسه مظهر وأخلاق العرب بمحض إرادته. وهكذا أصبح الرائد والمعلّم لكثير من الأوروپيين الذين حاولوا، في القرنين التاليين، سلوك الخطة والطريقة نفسها. وهناك من يظن أنّ هذا العمل ما هو إلّا مجرّد تمويه أو إجراء احتياطي، ولكنّ الآخرين يعتقدون أنّ هذا هو ردّ الفعل الطبيعي، نظراً للأساليب السائدة في محيطهم الموقت. ولكن هنالك من

يظن أنّ هذا الدور قد استثمر بوضوح بكشف الحقيقة، وأنّ هؤلاء الرجال كانوا يبدون وكأنّهم قد رجعوا لطبيعتهم، عندما كانوا ينغمسون انغماساً عميقاً في شخصياتهم الكاذبة. وبالنسبة إليهم، لقد كان مجرّد الاشتراك، في خضم تلك الصرامة والقسوة في الحياة البدوية، ما هو إلّا عامل مكمّل لشخصياتهم بشكل ليس له مثيل(٤٢).

وقد أفصح، بعد نصف قرن تقريباً، رحالة يهودي بريطاني هو «وليم بلغريف» عمّا كتمه آخرون، حينما كتب في مشاهداته الشخصية عن «رحلة عام في وسط وشرق الجزيرة العربية» عام ١٨٧٣م: «لقد حان الوقت لأن نملأ هذا الفراغ الموجود في خارطة آسيا، وهذا الذي سنحاوله رغم كلّ خطر، فإمّا أن تصبح الأرض الممتدة أمامنا قبراً لنا، أو أننا سنعبر أوسع امتداداتها عرضاً»، فإنّه كان يلخص حلم الرحالة الذين سبقوه واغراض أولئك الذين سيأتون بعده(٤٣). ولا يُنبئك مثل خبير.

● إعادة طبع الرحلات

بقي أن نشير إلى أن رحلات علي بك التي أثارت جدلاً، قد طبعت بالانكليزية عام ١٨١٦، تحت عنوان: «رحلات علي بك في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا ١٨٠٣ ـ ١٨٠٧»(٤٤) ويحمل غلاف الرحلات صورة «علي بك العبّاسي» بزيّه الإسلامي. وأُعيد طبعها في لندن عام ١٩٩٣.

ولندرة الكتاب وأهمّيته غدا سعره مرتفعاً جداً، خاصّة في مطلع القرن العشرين، ويذكر أمين الريحاني معاناته للحصول على نسخة من الرحلات، وكيف أنّ أحد الكتبيين نشر إعلاناً في الصحف، لمن لديه نسخة يريد بيعها، وحينما وُجد.. كان الثمن عشرين ليرة إنكليزية فقط!!

● سيتزن.. أو الحاج موسىٰ!

أمّا الرحّالة الثاني الذي قام بمهمّة مشابهة، فهو الألماني «الريخ سيتزن»، غير أنّ المعلومات عنه شحيحة جدّاً، ولا ترقى المصادر المتوفّرة (لدينا في أقل التقادير) إلى عدد أصابع اليد الواحدة، وحتى هذه المصادر تذكره بإيجاز شديد.

يعرّفه الدكتور عبدالرحمن بدوي بأنّه «مستشرق ورحالة ألماني»؛ ولهذا صنّفه ضمن موسوعته الشهيرة عن المستشرقين[٤٥]. ولد عام ١٧٦٧م. ونجهل الكثير عن نشأته وحياته، وكلّ ما نعرفه؛ أنّه قضى عشرين سنة يدرّس ويتأهّب لرحلته إلى الشرق. فجاء سوريا سنة ١٨٠٥ وأقام فيها بضع سنين، وكتب في رحلته كتاباً قيّماً باللغة الألمانية[٤٦].

جاء إلى مصر في ١٨٠٧م، فأقام بها طوال عامين. وكان يلبس الزي الإسلامي[٤٧].

وكان قد تعرّف إلى المستشرق النمساوي «همّر پورجشتال» [١٧٧٤ـ ١٨٥٦م] وفي اسطنبول عام ١٨٠٢م، وتبودلت بينهما الرسائل بعد ذلك، فكان سيتزن يصف لهمّر ما يشاهده في رحلاته في سوريا وفلسطين وشرقي الأردن وبلاد العرب ومصر السفلىٰ والفيّوم. وفي مصر جمع مخطوطات عربيّة وآثاراً مصرية قديمة، وقد اقتنىٰ هذه المخطوطات لصالح المكتبة الدوقيّة في جوتا[٤٨].

سافر إلى الحجاز، في زيّ درويش اسمه «الحاج موسى» فدخل مكّة حاجّاً سنة ١٨١٠م.. وهناك قابل الأمير سعود، وكان قد ارتاب بقيافته وإسلامه، ولكن كبير الوهابيين يومئذ لم يمانع العالِم الافرنجي في تجواله[٤٩] ولا ندري ما هو السرّ وراء هذا التساهل الوهابي، مع المشكوك في أمرهم إسلامياً، قبال تشدّدهم المعهود مع بعض المسلمين، الذين لا يتوانون عن إلصاق تهمة «الشرك» بهم، بمناسبة وفي غير مناسبة؟!

وعلى أيّة حال، فإنّ سيتزن المسكين ـ كما يصفه برينث ـ تلك الشخصية

الواعدة التي قتلتها الخرافات والطمع، قبل أن تستطيع تقديم أيّ شيء ذي بـال، فقد سافر في هذه الفترة من الزمن عبر ذلك المسرح العريض لشبه الجزيرة العربية؛ وتجوّل خلال المدن العربية القديمة التي أصبحت خرائب وأطلالاً مثل البتراء. وقد أعلن إسلامه وأدّىٰ فريضة الحجّ في مكة(٥٠).

وفي صيف عام ١٨١٠ قصد سيتزن اليمن، وطوّف فيها فعثر على النـقوش، التي أشار إليها نيبور بالقرب من المدينة الحميرية ذمار، فنسخ الكتابات العـربية الجنوبية الأُولى، وهي عبارة عن خمس قطع صغيرة(٥١).

وفي رسائله إلى المستشرق همّر تحدّث له أيضاً عن جنوب الجزيرة العربية، وعن البربر، وأرسل إليه رسوماً لنقوش من جنوب الجزيرة العربية، ومن سيناء، وتحدّث عمّن لقيهم من الرجال، فقد التقىٰ بالشيخ عبدالرحمن الجـبرتي [١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م]، وبالترجمان الفرنسي «Asselin de Cherville» [١٧٧٢ ـ ١٨٢٢م] الذي قال له: إنّ قصص ألف ليلة وليلة نشأت في عصر متأخّر، وهذا هو ما هيّأ لهمّر الفرصة كي يكون أوّل من يحيل إلى الموضع المـشهور في «مـروج الذهب» للمسعودي، حول هذا الموضوع(٥٢).

وكان في نيّة «سيتزن» أن يجتاز الجزيرة العربية إلى الخليج الفارسي؛ ليسوح في الشرق الأوسط، فعاد من عدن ووجهته الجبال(٥٣) وعندما بلغ مخا اعتقد القوم أنّه ساحر، فما ترك، وقافلته المحملة بمجموعاته، مخا حتى اختفىٰ. فمن قائل: إنّ العرب قتلوه بالقرب من مدينة تعز(٥٤) بعد أن رابهم أمـره، خـاصّة أنّ هـذا المسـتعرب الألماني لم يكن ـ على ما يظهر ـ مثل علي بك العباسي بارعاً في التنكّر(٥٥) ومن قائل: إنّ الإمام أمر بدسّ السمّ له في صنعاء، وهناك لقي حتفه(٥٦) عام ١٨١١م، إذ لم يكن الإمام يقيم وزناً لذلك الأوروبي الوحيد الذي لم يرافقه أحـد، وعـندما فـتحت حقائبه وجدوا فـيها بـعض النـباتات المجـفّفة، وأكـياساً تحـوي بـعض البـذور والحشرات المحفوظة، وبعض الأدوات الفلكية، والدفاتر المملوءة بالكتابات غير

المفهومة، وصوراً وخرائط أماكن بعيدة، ومبلغاً زهيداً من المال[٥٧]، فيما ترك اختفاء سيتزن أثراً سيئاً في نفوس الرحالة فأحجموا عن جنوب بلاد العرب سنوات[٥٨].

يقول عنه «هوغارث»: «كان سيتزن نباتيّاً مشهوراً في أوروپا، وهو من العلماء الأفاضل، له نظرات ثاقبة صائبة في الأشياء وفي الناس» وإنّ من يقرأ كتبه عن بعض الحكّام في سوريا، وبعض النباتات والصناعات في لبنان، ليتأكّد من ذلك، ويأسف جداً، لأنّ كتبه ومذكّراته فقدت بعد موته في اليمن، فحرمنا رأيه في الوهابيين وأميرهم الأكبر سعود، كما يقول الريحاني[٥٩].

وتبقى مغامرات "سيتزن" ومخاطراته الواسعة المتنوّعة، بما في ذلك تظاهره بالإسلام، ولبس زي الدراويش، وحجّه إلى مكّة، وذهابه إلى اليمن، فضلاً عن مكوثه في الشام ومن ثم في مصر.. كلّ ذلك يبقى مثار علامات استفهام حول حقيقة المهمّة، التي كانت موكلة إلى هذا الشاب، الذي لقي حتفه، وهو في غمرة انهماكه بمهمّته السرّية.. والمشبوهة تلك..

● اسكتلاندي.. أميراً للمدينة المنوّرة!

ثمّة مغامران آخران استطلعا الحجاز في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، أي بعد سنوات قليلة جداً من أداء «علي بك العباسي» و «سيتزن» (أو الحاج موسى) الحج إلى مكّة المكرّمة. وهما السكوتلاندي «توماس كيث»، والايطالي «جيوفاني فيناتي».

وقد زار الحجاز عدد آخر من الاوروپيين الرحالة بعد ذلك، ولا سيما خلال القرن التاسع عشر، منذ بدايته حتى نهايته. وقد كانت حملة الخديوي محمد علي باشا على الحجاز، بأمر من الباب العالي في اسطنبول؛ لانقاذها من الوهابيين، سبباً في دخول عدد من الاوروپيين مع الجيوش المصرية إلى الأراضي المقدّسة،

وزيارتهم مكة والمدينة، كما فعل الرحالة «بوركهارت»، كما حصل للجندي السكوتلاندي المغامر «توماس كيث».

فقد كان «توماس كيث» اغا من أغوات المماليك العاملين في جيوش محمّد علي باشا، باسم «ابراهيم أغا»(٦٠). وكان طوسون الشاب مثل أبيه وأخيه ابراهيم متساهلاً في دينه، عاملاً بتساهله في أمور شتّىٰ سياسية وغير سياسية، وكان يميل خصوصاً إلى الاوروپيين، ويحب الانتفاع بعلومهم واختراعاتهم. وقد ضمّ الجيش المصري أولئك المجازفين منهم والمسترزقين(٦١) وقد كتب لإبراهيم أغا هذا (توماس كيث) أن يشارك في حملة طوسون بن محمد علي باشا، التي سيقت على المدينة المنوّرة سنة ١٨١٢م، فكان أوّل الداخلين إليها، ثم وجد نفسه يشغل أغرب وظيفة في حياته، لفترة قصيرة من الزمن، وهي وظيفة حاكم عسكري للمدينة المنوّرة، على ما يقول هوغارث(٦٢) وهذا ممّا يدلّل على التساهل الذي كان يبديه محمد علي باشا الكبير وأولاده.

● ومن ايطاليا مغامر اسمه الحاج محمد!

أمّا المغامر الآخر، فهو رجل من أهالي فيرارا في ايطاليا. وقد قُدّر له، بعد تطويحات ومغامرات عدّة، أن يحجّ إلى مكّة المكرّمة في ١٨١٤م، باعتباره رجلاً (مسلماً) اسمه «محمد!».

لا نعرف عن هذا الأوروبي ـ كزميله سيتزن ـ إلّا النزر اليسير، وكلّ ما لدينا من معلومات عنه، أنّه سيق إلى الجنديّة في بلدته سنة ١٨٠٥م، ففرّ منها وقبض عليه، ثم سيق إليها مرّة ثانية. وهناك اتفق مع جنود آخرين، وفرّ إلى ألبانيا، فاشتغل عند أحد الباشوات الأتراك فيها، وتظاهر باعتناق الإسلام، فتوجّه إلى اسطنبول، وبعد مغامرات وتقلبات عدّة وصل إلى القاهرة في ١٨٠٩م، وانخرط في سلك الحرس الألباني، وأصبح عريفاً في حرس الخديوي محمد علي باشا الخاص.

واشترك بعد ذلك في حملة سيقت إلى مصر العليا للقضاء على المماليك وثورتهم فيها، ثم رابطت قوّته في المطريّة استعداداً لسوقها بقيادة طوسون باشا بن محمد علي باشا، لتأديب الوهابيين الذين احتلوا الحجاز. فأبحرت القوّة في ١٨١١م، واستطاعت الإنزال في ينبع، واستولت عليها بعد معركة اشترك فيها جيوفاني أو «محمد» اشتراكاً فعلياً. وبعد أن بقي فيها مدّة من الزمن سمع بانتصارات محمد علي باشا على الوهابيين في الحجاز، فقرّر الالتحاق بالقوّة الألبانية المنجدة التي توجّهت إلى هناك في ١٨١٤م.

وهناك اشترك فيناتي في محاصرة القنفذة والاستيلاء عليها، وكان موجوداً فيها حينما استردّها الوهابيون بفظاظة، فجرح وتمرّض ولذلك قرّر الفرار من الجندية والتوجّه إلى مكّة نفسها، فحجّ فيها وكتب عمّا شاهده، خلال ذلك، بتفصيل غير يسير. فهو يقول:

.. ولمّا كنت مسروراً لنجاحي في الفرار، كنت في وضع فكري يتقبّل شيئاً غير يسير من الانطباعات القويّة، ولذلك تحسّست كثيراً بجميع ما رأيت، عندما دخلت البلدة (يقصد مكّة) لأنّها وإن لم تكن واسعة ولا جميلة بحدّ ذاتها. فقد كان فيها شيء يبعث الرهبة والاندهاش في النفس، وكان ذلك يلاحظ على الأخصّ عند الظهيرة، حينما يهدأ كل شيء تمام الهدوء، إلّا المؤذّن الذي يدعو الناس إلى الصلاة من فوق المأذنة.. وأبرز ما يلاحظ في هذه البلدة البناء المقدّس المشهور الذي يقع في وسطها(٦٣).

ويمضي «فيناتي» في وصف البيت الحرام قائلاً: «هو فناء مبلّط واسع له أبواب كثيرة تؤدّي إليه من جميع الجهات، مع ممر واسع يحمل سقفه أعمدة تحيط بالبناء كلّه، بينما يقوم في وسطه بناء يدعى الكعبة، وتغطّي جدران هذا البناء من الخارج بكسوة من المخمل الثمين الذي تطرّز فوقه كتابات عربيّة بالذهب»(٦٤).

ثمّ يعلّق على ازدحام الناس في مكة، وكثرة الحجّاج فيها فيقول: «.. ومع

هذا التجمّع الهائل الذي كان ينقطع بين حين وآخر في السنوات الأخيرة، فقد وصلت إلى مكّة، منذ أن أتت إليها قافلتان كبيرتان، إحداهما من آسيا والأُخرى من أفريقيا، يبلغ عدد القادمين فيهما حوالى أربعين ألف شخص، كان يبدو عليهم كلّهم مقدار ما يكنّونه في نفوسهم من الاحترام والتقديس للبيت الحرام..».

وهنا يعلّق الرحالة بورتون (١٨٢٠ ـ ١٨٩٠م)[٦٥]، الذي نشر ما كتبه فيناتي في آخر رحلته، على هذا بقوله: إنّ «علي بك» يقدّر عدد الحجّاج الذين وقفوا في عرفات سنة ١٨٠٧ بثمانين ألف رجل وألفي امرأة وألف طفل. وأنّ الرحالة بيركهارت قدّرهم في ١٨١٤ أيضاً بسبعين ألفاً. ثم يقول بورتون: إنّهم لم يتجاوزا الخمسين ألف نسمة، حينما زار مكّة سنة ١٨٣٥م[٦٦].

ويقول فيناتي بالنسبة لمناسك الحج في عرفات: إنّ الحجّاج حينما يذهبون إليها، لابدّ من أن يضحّوا ولو بذبح خروف فيها، وإنّ هذا يفعله الغني والفقير، على سواء، ويساعد فيه الغني الفقيرَ عند الحاجة. وكان مثل هذا العدد الهائل من الضحايا يملأ الأماكن المكشوفة كلّها، فيتقاطر الفقراء من جميع أنحاء البلاد ليأخذوا حصّتهم منها.. وبعد أن تتمّ مناسك الحج كلّها كانت تسجّل الأسماء عند كاتب خاص يُعيّن لهذه المهمّة، وعند ذاك ينفضّ الحجّاج ويعودون إلى أماكنهم.

ويعلّق بورتون على هذا القول أيضاً بقوله: إنّ هذه العادة لم يعد يُعمل بها. وإنّ شهادة كان يعطيها الشريف من قبل إلى جميع من يستطيع دفع المال المطلوب عنها، ومن يحتاج إلى البرهنة على ذهابه إلى حج البيت الحرام، لكن هذا لم يعد لها وجود[٦٧].

وفي الوقت الذي كان فيه «جيوفاني فيناتي» يقوم برحلة الحج إلى مكّة، كان هناك ثمّة رحالة خطير، يُعدّ من أشهر رحالي القرن التاسع عشر، وأبعدهم صيتاً وشهرة، يشارك في موسم الحج ذاك، متخفّياً تحت اسم مستعار «الشيخ إبراهيم».. ذلك هو الرحالة السويسري بيركهارت الذي سنأتي على ذكره، في الحلقة القادمة، بإذنه تعالى.

الهوامش :

(١) يُراجع مقال؛ «رجال على ظهر الرمال العربيّة» للاستاذ عبدالرحيم حسن، مجلّة العالم (لندن) ـ العدد (٢٧٦): ٢٧ آيار (مايو) ١٩٨٩م ـ ٢٢ شوال ١٤٠٩هـ، ص ٥٠.

(٢) المرجع نفسه : ٥١.

(٣) بيتر برينث؛ «بلاد العرب القاصية»، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسّان سبانو، بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، ص: ٨٥.

(٤) جعفر الخليلي؛ «موسوعة العتبات المقدّسة ـ قسم مكة»، ٢: ٢٥٨ (ط ٢، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

(٥) مجلّة العالم؛ م. س.

(٦) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ٩٨.

(٧) مجلة العالم؛ م. س: ٥١.

(٨) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ٩٨.

(٩) يُراجع التحقيق الموسوم؛ «علي بيك العبّاسي الجاسوس للأسبان والفرنسيين: رحلاته صورة دقيقة عن العالم العربي بين ١٨٠٣ و ١٨٠٧»، المنشور في صحيفة الحياة (طبعة لندن) ـ الأحد: ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣م ـ ١٠ ربيع الثاني ١٤١٤هـ، ص١٧.

(١٠) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ٩٨.

(١١) صحيفة الحياة؛ م. س.

(١٢) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢٥٩.

(١٣) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ٩٩ ـ ١٠٠.

(١٤) صحيفة الحياة؛ م. س.

(١٥) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢٦٠.

(١٦) أمين الريحاني؛ «تاريخ نجد الحديث» المنشور ضمن الأعمال العاملة، ٥: ٧٨ (بيروت، ١٩٨٠م).

(١٧) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢٦٠.

(١٨) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠٠.

(١٩) علّق مترجما الكتاب على هذه النقطة بقولهما: «لا داعي لهذا الافتراض، فان الحجر الأسود، حتّى عندما سُحب من مكانه فانّه قد أُعيد إلى مكانه نفسه الذي ما يزال عليه حتى اليوم» الكتاب ص ١٠١، هامش.

(٢٠) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢١) للأسف، نجد بعض الباحثين يُحسن الظن بجهود أمثال «علي بك»، ويصنّفها على أنّها جهود علمية (..!) مجرّدة، تتوخّىٰ خدمة العلم والحقيقة!، وهذا المنحىٰ نلمسه في موسوعة «المستشرقين» بأجزائها الثلاثة، من

تأليف نجيب العقيقي!

(٢٢) تاريخ نجد الحديث؛ م. س: ٧٨.

(٢٣) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢٦٠.

(٢٤) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠٢.

(٢٥) موسوعة العتبات المقدسة؛ م. س.

(٢٦) بلاد العرب القاصية؛ م. س.

(٢٧) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س.

(٢٨) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠٣.

(٢٩) المرجع نفسه.

(٣٠) المرجع نفسه: ١٠٤.

(٣١) المرجع نفسه.

(٣٢) تاريخ نجد الحديث؛ م. س.

(٣٣) المرجع نفسه.

(٣٤) بلاد العرب القاصية؛ م. س.

(٣٥) صحيفة الحياة؛ م. س.

(٣٦) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠٦.

(٣٧) صحيفة الحياة: م. س.

(٣٨) صحيفة الحياة: ١٣/٩/١٩٩٣.

(٣٩) بلاد العرب القاصية؛ م. س.

(٤٠) المرجع نفسه: ١٠٥.

(٤١) تاريخ نجد الحديث؛ م. س: ٧٨.

(٤٢) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠٥.

(٤٣) مجلّة العالم؛ م. س.

(٤٤) "Travels of AlY, BeY in Morocco, Tripoli, CYprus EYprus, EYgpt, Arabla, SYria, and TurkeY. Between the Years 1803 and 1807"

(٤٥) تُراجع الموسوعة، ص: ٢٢٦ (ط٢، بيروت، ١٩٨٩م).

(٤٦) تاريخ نجد الحديث؛ م. س: ٧٩.

(٤٧) موسوعة «المستشرقين»؛ م. س: ٢٢٦.

(٤٨) المرجع نفسه.

(٤٩) تاريخ نجد الحديث؛ م. س.

(٥٠) بلاد العرب القاصية؛ م. س : ١٠٧.

(٥١) نجيب العقيقي؛ «المستشرقون» ١: ١٠٩٧(ط ١، القاهرة، ١٩٦٥).

(٥٢) موسوعة المستشرقين؛ م. س.

(٥٣) تاريخ نجد الحديث؛ م. س: ٧٩.

(٥٤) المستشرقون؛ م. س، ٣: ١٠٩٧.

(٥٥) تاريخ نجد الحديث : ٨٠.

(٥٦) المستشرقون : م. س.

(٥٧) بلاد العرب القاصية: ١٠٧.

(٥٨) المستشرقون: م. س.

(٥٩) تاريخ نجد الحديث : ٨٠.

(٦٠) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٣: ٢٤٠ (ط ٢، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

(٦١) تاريخ نجد الحديث : ٧٧.

(٦٢) موسوعة العتبات المقدّسة : م. س، ٣: ٢٤١.

(٦٣) المرجع السابق ٢: ٢٦١.

(٦٤) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٢.

(٦٥) سنتحدّث عنه في حلقات قادمة، بإذنه تعالى.

(٦٦) يُراجع كتابه: «الحج إلى المدينة ومكّة»

Pilgrimage to AL - Medinah and Meccah [1855 - 1856].

(٦٧) موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢٦٢.